تفكيك الهويات المصطنعة في تاريخ الشرق الأدنى

تمهيد منهجي

لا يمكن قراءة تاريخ الشرق الأدنى القديم بمنطق القوميات الحديثة. فالهويات التي نعرفها اليوم لم تكن موجودة بصيغتها الحالية، بل تشكّلت عبر مسارات طويلة من التحوّل السياسي، اللغوي، والديني. هذا الفصل لا ينفي وجود السكان أو الثقافات، بل يفكّك **تحوّل الأسماء والتوصيفات إلى هويات صلبة لاحقًا**.

عندما نتكلم عن جغرافية الشرق الأدنى يجب أن نبحث عن السكان الأصليين لهذه الجغرافية,من هم السكان الأصليون ماهي جغرافية هذه المناطق؟هل هجرة مجموعات بشرية الى هذه الجغرافية تدل على أنها أرض تاريخية لهم؟وفي هذا البحث الأكاديمي أسرد الحقائق لهذه الجغرافية وكيف صنعت هويات وقوميات ليست صاحبة الأرض بأن هذه الجغرافية لهم.

الإطار النظري: ما هي الهوية في العالم القديم؟

في الشرق الأدنى القديم، لم تكن الهوية قائمة على "الأمة"، بل على طبقات متداخلة:

- هوية مدينية (مدينة/مملكة)
- هوية قبلية–رعوية (تحالفات متنقلة)
- هوية إمبراطورية (خاضع/تابع)
- هوية دينية–طقسية
- هوية لسانية/إدارية

الهوية القومية بالمعنى الحديث **نتاج متأخر** أُسقط على الماضي.

آليات تصنيع الهوية

1. التسمية الخارجية

القوى الكبرى كانت تطلق أسماء جامعة على مناطق وشعوب مختلفة لأغراض إدارية، لا إثنية. الاسم الخارجي يتحوّل لاحقًا إلى هوية في الوعي الحديث.

2. التعميم الإمبراطوري

الإمبراطورية تجمع عشرات المدن واللهجات تحت مسمّى واحد. هذا المسمّى إداري، لا يدل على شعب واحد متجانس.

3. التحويل الديني

اللغة الطقسية والكنيسة تنتجان هوية تتجاوز الأصل الاجتماعي، ثم تُقوْمَن لاحقًا.

4. إسقاط الزمن

قراءة الماضي بأدوات الحاضر تؤدي إلى خلق استمراريات وهمية.

5. الأسطورة النصية

الأنساب والنصوص الدينية تُنتج شعوبًا كاملة بوصفها كيانات أزلية.

اختبار كشف الهوية المصطنعة

يمكن اختبار أي هوية تاريخية عبر الأسئلة التالية:

1. هل الاسم ذاتي أم خارجي؟
2. هل وُجدت مؤسسات سياسية موحّدة؟
3. هل هناك لغة خاصة أم لغة إدارة/دين؟
4. هل الهوية سياسية أم دينية؟
5. هل الاسم مستمر أم متبدّل؟
6. هل توجد نقوش محلية أم روايات لاحقة؟
7. هل ظهر الخطاب القومي فجأة في العصر الحديث؟

فشل الهوية في عدة أسئلة يدل على إعادة تصنيع متأخرة.

نماذج تطبيقية

كنعان

لا توجد دولة اسمها كنعان ولا شعب كنعاني موحّد. الاسم استُخدم خارجيًا لوصف فضاء مديني–تجاري متعدّد. الهوية كانت مدينية: صور، صيدا، جبيل، أوغاريت.

آشور

آشور القديمة كانت دولة ومؤسسة سياسية–دينية. الإمبراطورية ضمّت شعوبًا متعدّدة. القومية الآشورية الحديثة إعادة بناء متأخرة فوق هويات كنسية ولسانية.

الآراميون

الآراميون ظهروا كتحالفات بدوية ثم كهوية سياسية. لغتهم تحوّلت إلى لغة إدارة كونية، فتجاوزت الآراميين أنفسهم.

السريان

السريانية هوية كنسية–لغوية مسيحية. تحويلها إلى قومية صلبة نتاج سياقات حديثة سياسية وثقافية.

قاعدة التحليل الأساسية

السكان يستمرون بدرجات، بينما الأسماء واللغات والهويات تتبدّل. تغيّر الاسم لا يعني تغيّر السكان، بل تغيّر السلطة أو اللغة أو الوظيفة الثقافية.

خلاصة منهجية

الهويات في الشرق الأدنى القديم ليست كيانات إثنية ثابتة، بل صيغ متحوّلة من الانتماء. كثير من القوميات المعاصرة ليست امتدادًا مباشرًا لكيانات قديمة، بل إعادة بناء حديثة فوق طبقات سكانية وثقافية أقدم.

خاتمة

تفكيك الهويات المصطنعة لا يعني نفي التاريخ، بل تحريره من إسقاطات لاحقة. إنه انتقال من سؤال "من نحن؟" إلى سؤال "كيف تشكّل ما نسمّيه نحن؟"، وهو جوهر البحث التاريخي النقدي.

تفكيك الهويات المصطنعة في تاريخ الشرق الأدنى

المقدّمة العامة (خارج الترقيم)

لماذا هذا الكتاب؟

يأتي هذا الكتاب في سياق نقدي يهدف إلى إعادة قراءة تاريخ الشرق الأدنى القديم خارج إسقاطات القومية الحديثة والقراءات الأيديولوجية المتأخرة. لا ينطلق العمل من إنكار وجود الشعوب أو الثقافات، بل من تفكيك الكيفية التي تحوّلت بها أسماء جغرافية، أو تسميات إدارية، أو هويات دينية–لغوية، إلى «قوميات» صلبة في الوعي المعاصر.

يرتكز هذا الكتاب على فرضية مركزية مفادها أن:

الهويات القديمة في الشرق الأدنى لم تكن قوميات إثنية ثابتة، بل صيغًا متغيّرة من الانتماء السياسي، المديني، اللغوي، والديني.

ويهدف إلى التمييز المنهجي بين:

- السكان بوصفهم استمرارية ديموغرافية طويلة الأمد
- الهوية بوصفها بناءً تاريخيًا متحوّلًا
- الاسم بوصفه أداة توصيف أو سلطة

الفصل الأول

إشكالية الهوية في دراسة الشرق الأدنى القديم

1.1 إشكالية المنهج التاريخي

تعاني دراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم من أزمة منهجية مزمنة، تتمثّل في إسقاط مفاهيم حديثة مثل «الأمة»، «القومية»، و«الشعب المتجانس» على مجتمعات لم تعرف هذه التصنيفات أصلًا. فالمؤرخ الحديث، حين يستخدم أدوات الدولة–الأمة لفهم عالم المدن–الإمبراطوريات، يقع في خطأ بنيوي لا في خطأ معلوماتي فحسب.[^1][^2]

تعاني دراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم من أزمة منهجية مزمنة، تتمثّل في إسقاط مفاهيم حديثة مثل «الأمة»، «القومية»، و«الشعب المتجانس» على مجتمعات لم تعرف هذه التصنيفات أصلًا. فالمؤرخ الحديث، حين يستخدم أدوات الدولة–الأمة لفهم عالم المدن–الإمبراطوريات، يقع في خطأ بنيوي لا في خطأ معلوماتي فحسب.

إن المجتمعات القديمة لم تعرّف نفسها على أساس الانتماء القومي، بل على أساس:

- المدينة
- الملك
- الإله
- اللغة الوظيفية
- أو الانتماء الطقسي

1.2 الفرق بين الهوية القديمة والهوية الحديثة

الهوية الحديثة تقوم على عناصر ثلاثة: لغة قومية معيارية، وسردية تاريخية متصلة، وشعور جمعي بالانتماء السياسي. هذه العناصر لم تكن متوافرة مجتمعة في المجتمعات القديمة، حيث كان الانتماء محليًا أو وظيفيًا أو دينيًا. إن البحث عن قوميات قديمة هو في ذاته إسقاط مفاهيمي حديث على واقع تاريخي مختلف جذريًا.[17]

الهوية الحديثة تقوم على عناصر ثلاثة:

1. لغة قومية معيارية
2. سردية تاريخية متصلة
3. شعور جمعي بالانتماء السياسي

في المقابل، تفتقد الهويات القديمة إلى هذه العناصر مجتمعة. فاللغة لم تكن معيارية، والسردية لم تكن قومية، والانتماء كان محليًا أو وظيفيًا. لذلك، فإن البحث عن «قوميات» قديمة هو في ذاته سؤال غير تاريخي.

1.3 مشكلة القراءة التوراتية والاستشراقية

أسهمت القراءات التوراتية المبكرة، ثم الاستشراق الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، في تحويل تسميات جغرافية–نصية إلى شعوب متخيّلة ذات استمرارية إثنية. جرى ذلك عبر قراءة النصوص الدينية بوصفها وثائق تاريخية مباشرة، وإسقاط أنساب لاهوتية على الواقع الأثري، والبحث عن «أمم» بدل تحليل البُنى الاجتماعية والسياسية.[1819]

أسهمت القراءات التوراتية المبكرة، ومن بعدها الاستشراق الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، في تحويل تسميات جغرافية–نصية مثل «كنعان» و«آرام» و«آشور» إلى شعوب متخيّلة ذات استمرارية إثنية. وقد جرى ذلك عبر:

- قراءة النصوص الدينية بوصفها وثائق تاريخية مباشرة
- إسقاط أنساب توراتية على الواقع الأثري
- البحث عن «أمم» بدل البحث عن «بُنى»

1.4 بين الاستمرارية السكانية والانقطاع الهويّاتي

يُعدّ الخلط بين الاستمرارية السكانية والاستمرارية الهويّاتية من أخطر أخطاء كتابة تاريخ الشرق الأدنى. فالأدلة الأثرية تشير إلى دوام التجمعات المحلية، بينما تتبدّل أسماء الأقاليم ولغات الإدارة تبعًا لتحوّلات السلطة. إن تغيّر اللغة أو الاسم لا يعني بالضرورة تغيّر السكان.[2021]

يُعدّ الخلط بين الاستمرارية السكانية والاستمرارية الهويّاتية من أخطر الأخطاء في كتابة تاريخ الشرق الأدنى. فالسكان قد يستمرون في المكان نفسه عبر آلاف السنين، بينما تتغيّر:

- أسماؤهم
- لغاتهم

- أطر انتمائهم

إن تغيّر اللغة أو الاسم لا يعني بالضرورة تغيّر السكان، بل غالبًا تغيّر السلطة أو الوظيفة الثقافية.

1.5 نحو سؤال تاريخي جديد

بدل السؤال التقليدي «من هو هذا الشعب؟»، يقترح هذا الكتاب سؤالًا منهجيًا بديلًا: كيف تشكّلت هذه الهوية؟ ومن سمّاها؟ ولماذا؟ يتيح هذا التحوّل في السؤال تفكيك الهويات المصطنعة دون الوقوع في إنكار التاريخ أو نفي الذاكرة.[22]

بدل السؤال التقليدي: «من هو هذا الشعب؟»
يقترح هذا الكتاب سؤالًا منهجيًا بديلًا:

كيف تشكّلت هذه الهوية؟ ومن سمّاها؟ ولماذا؟

هذا التحوّل في السؤال هو ما يسمح بتفكيك الهويات المصطنعة دون الوقوع في إنكار التاريخ أو نفي الذاكرة.

خلاصة الفصل الأول

يؤسس هذا الفصل لإطار نقدي يعتبر الهوية نتاجًا تاريخيًا متحوّلًا، لا معطًى ثابتًا. ومن هذا المنطلق، تصبح دراسة الشرق الأدنى القديم دراسةً في التحوّلات البنيوية للأسماء واللغات والانتماءات، لا في تتبّع «أمم» ثابتة عبر الزمن.

هوامش الفصل الأول (Chicago)

17. Benedict Anderson, *Imagined Communities* (London: Verso, 1983), 6–7.

18. Mario Liverani, *Israel's History and the History of Israel* (London: Equinox, 2005), 11–18.

19. Mark S. Smith, *The Early History of God* (Grand Rapids: Eerdmans, 2002), 3–6.

20. Chris Wickham, *Framing the Early Middle Ages* (Oxford: Oxford University Press, 2005), 9–14.

21. Peter Brown, *The World of Late Antiquity* (London: Thames & Hudson, 1971), 7–10.

22. Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), 10–14.

يؤسس هذا الفصل لإطار نقدي يعتبر الهوية نتاجًا تاريخيًا متحوّلًا، لا معطًى ثابتًا. ومن هذا المنطلق، تصبح دراسة الشرق الأدنى القديم دراسةً في التحوّلات البنيوية للأسماء واللغات والانتماءات، لا في تتبّع «أمم» ثابتة عبر الزمن.

الفصل الثاني

ما هي الهوية في العالم القديم؟ (الإطار النظري)

2.1 غياب مفهوم الأمة في العصور القديمة

لم يعرف الشرق الأدنى القديم مفهوم «الأمة» بالمعنى الحديث القائم على وحدة اللغة، والحدود، والذاكرة السياسية الجمعية. فالدولة–الأمة نتاج حداثي مرتبط بالطباعة والتعليم الموحّد والسيادة الإقليمية. إن إسقاط هذا المفهوم على العصور القديمة يُنتج قراءة مُشوِّهة للواقع التاريخي.[1]

2.2 الهوية المدينية: المدينة بوصفها وحدة الانتماء

كانت المدينة في الشرق الأدنى القديم الإطار الأساسي للانتماء السياسي والديني. فالهوية تُعرَّف عبر اسم المدينة وإلهها وملكها، لا عبر فضاء قومي جامع. تؤكد السجلات الدبلوماسية والنقوش هذا الطابع المديني للانتماء.[2]

2.3 الهوية القبلية–الرعوية: التحالف بدل الأصل

لم تكن القبيلة وحدة نسبية صافية، بل إطارًا تحالفيًا مرنًا يضم جماعات مختلفة تحت اسم واحد. هذا النمط يفسّر اتساع التسميات الجمعية دون أن تدل على تجانس إثني.[3]

2.4 الهوية الإمبراطورية: الخضوع لا الانتماء

في الإمبراطوريات القديمة، دلّ الانتماء على الخضوع السياسي والجباية واستخدام لغة الإدارة، دون محو الهويات المحلية أو الدينية. الإمبراطورية نظام سيادة فوق–محلي لا مُنتِج لهوية قومية.[4]

2.5 الهوية اللغوية: اللغة بوصفها وظيفة

لم تكن اللغة معيار هوية قومية، بل أداة تواصل وإدارة وتجارة ودين. وقد يتعدد استعمال اللغات لدى الفرد والجماعة دون تبدّل الانتماء. انتشار لغة ما يعكس نجاحها الوظيفي لا هيمنة إثنية.[5]

2.6 الهوية الدينية–الطقسية

شكّل الدين والطقس محدِّدًا مركزيًا للانتماء، لكن ضمن أطر محلية أو إمبراطورية، لا قومية. كان الإله المحلي والمعبد والطقس عناصر تعريف أساسية.[6]

2.7 تراكب الهويات

اتسمت الهويات القديمة بالتراكب لا الأحادية؛ فقد يجتمع الانتماء المديني مع الخضوع الإمبراطوري واستعمال لغة إدارية والانخراط الطقسي. هذا التراكب مفتاح لفهم تعقيد الهوية القديمة.[7]

خلاصة الفصل الثاني

يبيّن هذا الفصل أن الهوية في العالم القديم شبكة متداخلة من الانتماءات المدينية والقبلية واللغوية والدينية والإمبراطورية، لا قومية ثابتة. إن إدراك هذا التراكب شرطٌ منهجي لتفكيك الهويات المصطنعة لاحقًا.

هوامش الفصل الثاني (Chicago)

1. Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Oxford: Blackwell, 1983), 1–7.
2. Mario Liverani, *International Relations in the Ancient Near East* (New York: Palgrave, 2001), 87–115.

3. Norman Yoffee, *Myths of the Archaic State* (Cambridge: Cambridge University Press, 2005), 33–52.

4. Karen Radner, *Ancient Assyria: A Very Short Introduction* (Oxford: Oxford University Press, 2015), 42–55.

5. Holger Gzella, *A Cultural History of Aramaic* (Leiden: Brill, 2015), 1–12.

6. Mark S. Smith, *The Early History of God* (Grand Rapids: Eerdmans, 2002), 15–28.

7. Glenn M. Schwartz, *Archaeology and the Genesis of History* (Cambridge: Cambridge University Press, 2019), 201–214.

تُظهر دراسة الإطار النظري للهوية في العالم القديم أن الانتماء لم يكن قوميًّا، ولا ثابتًا، ولا أحاديًّا. بل كان شبكة من العلاقات المدينية، والقبلية، واللغوية، والدينية، والإمبراطورية. إن فهم هذا التراكب هو الشرط الأساسي لتفكيك الهويات المصطنعة التي فُرضت لاحقًا على تاريخ الشرق الأدنى.

الفصل الثالث

آليات تصنيع الهوية في تاريخ الشرق الأدنى

3.1 الاسم الخارجي (Exonym): حين يُسمّي الآخرون

تُعدّ التسمية الخارجية من أبرز آليات تصنيع الهوية في التاريخ القديم، إذ كثيرًا ما أطلقت القوى الكبرى أسماء جامعة على جماعات ومناطق لا تعبّر عن تعريف ذاتي. كان الهدف إداريًا وسياسيًا بالدرجة الأولى، لا توصيفًا إثنيًا دقيقًا. ومع الزمن، تحوّل الاسم الخارجي إلى هوية متخيّلة في الوعي اللاحق.[1]

3.2 التعميم الإمبراطوري: اختزال التعدّد

تميل الإمبراطوريات إلى اختزال فسيفساء المدن والجماعات تحت مسمّى واحد لتسهيل السيطرة والإدارة. هذا التعميم لا ينتج شعبًا واحدًا، بل يُخفي التنوّع الحقيقي خلف قناع اسمي جامع، سرعان ما يُعاد تفسيره لاحقًا بوصفه هوية قومية.[2]

3.3 التحويل الديني: من الطقس إلى القومية

في سياقات لاحقة، تُعاد قراءة الهويات الدينية–الطقسية بوصفها هويات جامعة، ثم تُقوْمَن في العصر الحديث. هذا التحويل لا ينتمي إلى العالم القديم بقدر ما هو نتاج تحوّلات سياسية وثقافية حديثة.[3]

3.4 إسقاط الزمن (Anachronism)

يُعدّ إسقاط مفاهيم حديثة على مجتمعات قديمة من أكثر الأخطاء المنهجية شيوعًا. فقراءة الشرق الأدنى القديم بعين القرن التاسع عشر والعشرين تُنتج استمراريات وهمية وتحوّل الأسماء المتبدّلة إلى كيانات ثابتة لم توجد تاريخيًا.[4]

3.5 الأسطورة النصية والأنساب

تلعب النصوص الدينية والأنساب دورًا مركزيًا في تصنيع الهوية، إذ تُحوَّل أسماء رمزية أو لاهوتية إلى شعوب تاريخية كاملة. لا يمكن تجاهل هذه النصوص، لكن يجب التعامل معها بوصفها خطابًا رمزيًا لا سجلًا إثنيًا.[5]

3.6 القطيعة بين الاسم والسكان

تفترض السرديات القومية الحديثة أن تغيّر الاسم يعني تغيّر الشعب، غير أن الأدلة الأثرية والديموغرافية تشير إلى العكس. فالسكان يستمرّون، بينما تتبدّل الأسماء والهويات الوظيفية تبعًا لتحوّلات السلطة واللغة.[6]

خلاصة الفصل الثالث

يُظهر هذا الفصل أن كثيرًا من الهويات التاريخية نتاج عمليات تسمية وتعميم وتحويل متراكمة، لا تعبيرًا عن تشكّل إثني داخلي طبيعي. إن فهم هذه الآليات هو المفتاح المنهجي لتفكيك السرديات القومية المصطنعة.

هوامش الفصل الثالث

1. Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), 11–16.

2. Frederick Cooper, *Colonialism in Question* (Berkeley: University of California Press, 2005), 23–31.

3. Anthony D. Smith, *The Ethnic Origins of Nations* (Oxford: Blackwell, 1986), 21–34.

4. Eric Hobsbawm, *On History* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1997), 13–20.

5. Mark S. Smith, *The Early History of God* (Grand Rapids: Eerdmans, 2002), 1–8.

6. Chris Wickham, *Framing the Early Middle Ages* (Oxford: Oxford University Press, 2005), 9–15.

يكشف هذا الفصل أن كثيرًا من الهويات المتداولة اليوم ليست نتاج تشكّل داخلي طبيعي، بل نتيجة عمليات تسمية، تعميم، وتحويل متأخرة. إن فهم آليات تصنيع الهوية هو المفتاح المنهجي لفهم تاريخ الشرق الأدنى دون إسقاط أو تسييس.

الفصل الرابع

كنعان: اسم بلا شعب

4.1 كنعان في المصادر القديمة: الاسم قبل الهوية

يظهر اسم «كنعان» في المصادر المصرية ونصوص العمارنة بوصفه توصيفًا جغرافيًا–إداريًا لفضاء يمتد على الساحل الشامي وأجزائه الداخلية، لا بوصفه تعريفًا ذاتيًا لشعب يعلن عن نفسه بهوية موحّدة. لم يرد في أي نقش محلي تعريف جماعي يقول «نحن كنعانيون»، بل استُخدم الاسم من قبل قوى خارجية لأغراض إدارية وسياسية.[1]

4.2 غياب الدولة الكنعانية

لا توجد في السجل الأثري أو النصي أي دولة مركزية حملت اسم «كنعان»، ولا عاصمة موحّدة، ولا مؤسسات سياسية جامعة. ما نجده هو شبكة من المدن–الدول المستقلة، لكل منها ملكها، وإلهها المحلي، ونظامها الإداري الخاص. هذا الغياب البنيوي للدولة ينقض فكرة «الشعب الكنعاني» بوصفه كيانًا سياسيًا موحّدًا.[2]

4.3 الهوية المدينية بدل الهوية القومية

تُظهر الرسائل الدبلوماسية والنقوش المحلية أن الهوية في فضاء ما يُسمّى «كنعان» كانت هوية مدينية بامتياز. فالأفراد والملوك عرّفوا أنفسهم بأسماء مدنهم، لا باسم فضاء جامع. إن المدينة كانت وحدة الانتماء الأساسية، لا «كنعان» بوصفها مفهومًا قوميًا.[3]

4.4 اللغة المسماة كنعانية: تصنيف حديث

لا تظهر في المصادر القديمة لغة تُسمّى «اللغة الكنعانية» بوصفها لغة موحّدة. إن هذا المصطلح هو تصنيف لغوي حديث استُخدم لجمع لهجات شامية متقاربة (الفينيقية، العبرية القديمة، المؤابية، العمونية) ضمن إطار أكاديمي واحد. هذا التصنيف لا يعكس وعيًا لغويًا ذاتيًا قديمًا، بل أداة تحليل معاصرة.[4]

4.5 كنعان بين النص الديني والواقع الأثري

أسهمت النصوص الدينية اللاحقة في تحويل «كنعان» إلى فضاء إثني–تاريخي متخيّل، حيث جرى إسقاط سرديات نسبية وصراعية على واقع مديني متعدّد. غير أن المقارنة النقدية بين النصوص اللاهوتية والمعطيات الأثرية تُظهر فجوة واضحة بين السرد الديني والواقع التاريخي.[5]

4.6 لماذا استمر مصطلح كنعان؟

استمر استخدام مصطلح «كنعان» في الدراسات الحديثة لأسباب تتعلّق بسهولة التسمية الجامعة، وتأثير التقاليد التوراتية في البحث الغربي المبكر، والحاجة إلى إطار مفهومي واسع. غير أن هذا الاستمرار لا يمنح المصطلح شرعية بوصفه هوية شعب تاريخية.[6]

خلاصة الفصل الرابع

يُظهر هذا الفصل أن «كنعان» لم تكن يومًا شعبًا موحّدًا ولا دولة قائمة، بل اسمًا خارجيًا أُطلق على فضاء مديني متعدّد. إن تحويل هذا الاسم إلى هوية قومية قديمة هو نتاج قراءة لاحقة لا تدعمها الأدلة الأثرية أو النصية.

هوامش الفصل الرابع

1. Mario Liverani, *Israel's History and the History of Israel* (London: Equinox, 2005), 37–41.

2. Ann E. Killebrew, *Biblical Peoples and Ethnicity* (Atlanta: SBL Press, 2005), 88–94.

3. Amarna Letters, esp. EA 60–290; see also Mario Liverani, *International Relations in the Ancient Near East* (New York: Palgrave, 2001), 109–115.

4. Mark S. Smith, *The Early History of God* (Grand Rapids: Eerdmans, 2002), 6–10.

5. William G. Dever, *What Did the Biblical Writers Know and When Did They Know It?* (Grand Rapids: Eerdmans, 2001), 97–118.

6. Ann E. Killebrew, *Biblical Peoples and Ethnicity*, 3–12.

خلاصة الفصل الرابع

يُظهر هذا الفصل أن «كنعان» لم تكن يومًا شعبًا موحّدًا ولا دولة قائمة، بل اسمًا خارجيًا أُطلق على فضاء مديني متعدّد. إن تحويل هذا الاسم إلى هوية قومية قديمة هو نتاج قراءة لاحقة لا تدعمها الأدلة الأثرية أو النصية. وعليه، فإن تفكيك «كنعان» بوصفها هوية مصطنعة يُعدّ خطوة أساسية في إعادة قراءة تاريخ الشرق الأدنى بمنهج نقدي.

الفصل الخامس

آشور: الدولة التي تحوّلت إلى قومية

5.1 آشور: المدينة–الإله–الدولة

في أصولها الأولى، لم تكن «آشور» اسم شعب إثني، بل اسم مدينة وإله وحاضنة سياسية. شكّلت مدينة آشور مركزًا دينيًا–إداريًا تدور حوله سلطة ملكية، وكان الانتماء يُعرَّف عبر الولاء للمعبد والملك، لا عبر رابطة قومية جامعة.

هذا التعريف الثلاثي (مدينة–إله–دولة) يفسّر لماذا كان مصطلح «آشوري» في النصوص القديمة توصيفًا سياسيًا–مؤسسيًا أكثر منه إثنيًا.

5.2 الإمبراطورية وتعدّد الشعوب

مع توسّع الدولة الآشورية إلى إمبراطورية، أصبحت «آشور» إطار سيادة يضمّ شعوبًا ومدنًا متعدّدة اللغات والأصول. اعتمدت الإدارة الإمبراطورية على آليات:

- الترحيل السكاني
- التجنيد
- فرض الضرائب
- استخدام لغات وظيفية متعددة

لم تُنتج هذه الإمبراطورية شعبًا واحدًا، بل منظومة حكم فوق–محلية.

5.3 الاسم الإمبراطوري: من توصيف إداري إلى هوية

في السياق الإمبراطوري، تحوّل اسم «آشور» إلى علامة سيادة سياسية تُطلق على:

- الإقليم
- الإدارة
- الجيش

غير أن هذا الاستعمال لا يعني تشكّل هوية إثنية آشورية جامعة، بل يدل على مركزية السلطة. لاحقًا، جرى الخلط بين الاسم الإمبراطوري والهوية القومية.

5.4 سقوط الدولة واستمرارية السكان

أدّى سقوط الدولة الآشورية في أواخر القرن السابع قبل الميلاد إلى انهيار السلطة المركزية، لا إلى اختفاء السكان. استمرّت التجمعات السكانية في المدن والريف، بينما تلاشى الإطار السياسي الذي كان يحمل اسم «آشور».

هذا التمييز بين سقوط الدولة واستمرار السكان ضروري لتفكيك ادّعاءات الاستمرارية القومية.

5.5 من الآشورية السياسية إلى الآشورية المتخيّلة

في القرون اللاحقة، لم يظهر في المصادر المحلية تعريف ذاتي لجماعات تقول «نحن آشوريون» بوصفه انتماءً إثنيًا. إن إعادة إحياء الاسم بوصفه قومية حدثت في سياقات حديثة، ارتبطت بالقرن التاسع عشر، والاستشراق، والإرساليات، والتحوّلات السياسية.

جرى في هذه المرحلة تحويل اسم دولة قديمة إلى هوية قومية معاصرة، متجاوزة الانقطاع التاريخي بينهما.

5.6 اللغة والهوية: الأكدية، الآرامية، والسريانية

لم تكن اللغة الأكدية معيارًا للهوية القومية الآشورية، بل لغة دولة وإدارة. ومع الزمن، حلّت الآرامية محلها كلغة تواصل وإدارة، دون أن يعني ذلك تبدّلًا إثنيًا شاملًا.

هذا التحوّل اللغوي يبيّن مرة أخرى أن اللغة وظيفة تاريخية، لا دليلًا على استمرارية قومية.

خلاصة الفصل الخامس

يكشف هذا الفصل أن «آشور» في التاريخ القديم كانت دولةً ومؤسسةً سياسية–دينية، لا قومية إثنية بالمعنى الحديث. إن تحويل هذا الاسم إلى هوية قومية معاصرة هو نتاج قراءة حديثة أعادت تصنيع الماضي لخدمة تصوّرات راهنة، متجاهلة الانقطاع بين الدولة القديمة والهويات اللاحقة.

5.1 آشور: مدينة، إله، ودولة

لم تكن «آشور» في أصلها تسميةً لقومية أو شعب إثني بالمعنى الحديث، بل كانت في المقام الأول اسم **مدينة**، ثم اسم **إله**، ثم إطارًا **سياسيًا–دولتيًا**. فمدينة آشور، الواقعة على نهر دجلة، شكّلت منذ الألف الثالث قبل الميلاد مركزًا دينيًا وإداريًا ارتبط باسم الإله آشور، الذي أصبح لاحقًا رمزًا للسلطة والسيادة. وعليه، فإن الانتماء الآشوري في النصوص القديمة يدل على **الولاء السياسي والديني** لمركز الدولة، لا على رابطة دم أو هوية إثنية جامعة.

هذا التداخل بين المدينة والإله والدولة يفسّر لماذا لم يظهر في النصوص الآشورية القديمة أي تعريف ذاتي من نوع «نحن الشعب الآشوري» بالمعنى القومي، بل يظهر توصيف «آشوري» بوصفه صفة سياسية–مؤسسية.

5.2 الإمبراطورية الآشورية وتعدّد الشعوب

مع تحوّل آشور إلى قوة إمبراطورية كبرى في الألف الأول قبل الميلاد، أصبحت الدولة الآشورية إطارًا سياسيًا واسعًا يضم **شعوبًا ومدنًا متعددة اللغات والأصول**. اعتمدت الإمبراطورية على سياسات الترحيل السكاني، وإعادة التوطين، والتجنيد، والضرائب، دون أن تسعى إلى صهر هذه الجماعات في هوية إثنية واحدة.

لقد كان «الآشوري» في هذا السياق هو **مواطن الدولة أو خادمها أو الخاضع لسلطتها**، لا فردًا ينتمي إلى جماعة إثنية متجانسة. الإمبراطورية الآشورية لم تُنتج «شعبًا آشوريًا» بقدر ما أنتجت **نظام سيطرة سياسي وإداري**.

5.3 الاسم الإمبراطوري: من توصيف إداري إلى وهم الهوية

استخدم اسم «آشور» في العصر الإمبراطوري للإشارة إلى:

- الإقليم الخاضع لسلطة الملك
- الجهاز الإداري
- الجيش
- النظام السياسي ككل

غير أن هذا الاستخدام الإداري والسيادي تحوّل لاحقًا، في القراءات الحديثة، إلى افتراض وجود **هوية قومية آشورية مستمرة** منذ العصور القديمة. هذا التحوّل ناتج عن الخلط بين **اسم الدولة** و**هوية الشعب**، وهو خلط شائع في إسقاط مفاهيم الدولة–الأمة الحديثة على كيانات قديمة لم تعرف هذا النموذج.

5.4 سقوط الدولة واستمرارية السكان

أدّى سقوط الدولة الآشورية في أواخر القرن السابع قبل الميلاد إلى انهيار السلطة المركزية، لكنه **لم يؤدِّ إلى اختفاء السكان**. فالمدن والقرى في شمال بلاد الرافدين استمرّت مأهولة، وانتقلت إلى أطر سياسية جديدة (بابلية، فارسية، هلنستية، رومانية).

إن هذا التمييز بين **سقوط الدولة** و**استمرار السكان** أساسي لتفكيك ادعاءات الاستمرارية القومية. فغياب الدولة الآشورية لم يُنتج فراغًا سكانيًا، بل فراغًا سياسيًا أُعيد ملؤه بأطر حكم مختلفة، بينما بقيت البنية الديموغرافية في جوهرها مستمرة مع تحوّلات لغوية وثقافية.

5.5 اللغة والهوية: من الأكدية إلى الآرامية

لم تكن اللغة الأكدية معيارًا للهوية القومية الآشورية، بل كانت لغة دولة وإدارة. ومع توسّع الإمبراطورية وتعقّد شؤونها، جرى اعتماد الآرامية تدريجيًا كلغة تواصل وإدارة، نظرًا لمرونتها وانتشارها الواسع.

هذا التحوّل اللغوي لا يدل على «تغيّر قومي»، بل على **تحوّل وظيفي** في لغة الإدارة. إن انتقال السكان من استعمال الأكدية إلى الآرامية يبيّن بوضوح أن اللغة في الشرق الأدنى القديم كانت أداة عملية، لا علامة انتماء قومي.

5.6 من آشور القديمة إلى الآشورية الحديثة

لم يظهر في القرون اللاحقة لسقوط الإمبراطورية أي تعريف ذاتي لجماعات تقول «نحن آشوريون» بوصفه انتماءً إثنيًا متصلًا بالماضي الإمبراطوري. إن إعادة إحياء الاسم الآشوري بوصفه قومية حدثت في سياقات حديثة، ولا سيما في القرنين التاسع عشر والعشرين، في ظل:

- الاستشراق الأوروبي
- الإرساليات التبشيرية
- التحوّلات السياسية في الشرق الأوسط
- البحث عن هويات جماعية في إطار الدولة الحديثة

في هذا السياق، جرى **تحويل اسم دولة قديمة إلى قومية حديثة**، مع تجاهل الفاصل التاريخي بين الدولة الآشورية القديمة والهويات الدينية–اللغوية اللاحقة.

5.7 خلاصة الفصل

يُظهر هذا الفصل أن «آشور» في التاريخ القديم كانت **دولة ومؤسسة سياسية–دينية**، لا قومية إثنية بالمعنى الحديث. إن تحويل هذا الاسم إلى هوية قومية معاصرة هو نتاج قراءة حديثة أعادت تصنيع الماضي وفق منطق الدولة–الأمة، متجاهلة تعدّد الشعوب داخل الإمبراطورية، وانقطاع الإطار السياسي القديم، واستمرارية السكان ضمن هويات لغوية ودينية جديدة.

الفصل السادس

الآراميون: من تحالفات بدوية إلى لغة كونية

6.1 الظهور التاريخي: الاسم قبل الدولة

يظهر اسم الآراميين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد في سياق اضطرابات ما بعد انهيار العصر البرونزي. لا يظهر الاسم بوصفه دولة مركزية أو شعبًا متجانسًا، بل كتسمية لتحالفات بدوية–رعوية نشطت في البادية السورية–الفراتية ومناطق الاحتكاك مع المدن.

هذا الظهور يسبق تشكّل أي كيان سياسي آرامي واضح، ما يدل على أن الاسم توصيف اجتماعي–سياسي لا تعريف إثني صلب.

6.2 التحالف بدل الأصل: بنية الآراميين الاجتماعية

لم تتشكّل الجماعات الآرامية على أساس نسب واحد، بل عبر تحالفات مرنة ضمّت عشائر ومجموعات مختلفة. كانت الرعوية والتنقّل عنصرين مركزيين في هذه البنية، وهو ما أتاح سرعة التمدّد والاندماج في الفضاءات المدينية المجاورة.

يفسّر هذا الطابع التحالفي كيف أمكن للاسم الآرامي أن يتّسع ويستوعب عناصر متنوّعة دون أن يتحوّل إلى قومية إثنية.

6.3 من البادية إلى المدينة: وراثة الفراغ السياسي

مع ضعف الكيانات الحورية–الميتانية وتراجع القوى المركزية، دخلت الجماعات الآرامية المدن واستقرّت فيها تدريجيًا. لم يكن هذا الدخول تدميريًا في جوهره، بل اندماجيًا، حيث ورث الآراميون أطرًا إدارية ومدينية قائمة.

هنا تبدأ الآرامية بالتحوّل من لهجة محكية إلى لغة إدارة محلية.

6.4 اللغة قبل الهوية: لماذا نجحت الآرامية؟

لم تنتشر الآرامية بوصفها لغة شعب مهيمن عسكريًا، بل بوصفها لغة عملية، مرنة، وسهلة التعلّم. ومع توسّع الإمبراطوريات، وخصوصًا الآشورية ثم الفارسية، جرى تبنّي الآرامية لغةَ تواصل وإدارة عابرة للأقاليم.

هذا التبنّي الإمبراطوري هو العامل الحاسم في تحوّل الآرامية إلى لغة كونية.

6.5 الآراميون ≠ الآرامية

مع تحوّل الآرامية إلى لغة كونية، تجاوز انتشارها الجماعات الآرامية نفسها. استخدمتها شعوب ومدن لا تُعرّف نفسها بوصفها آرامية، ما يؤكد أن اللغة هنا وظيفة تاريخية لا علامة هوية قومية.

هذا الفصل بين اللغة والجماعة ضروري لتفكيك أوهام الاستمرارية الإثنية.

6.6 من الآرامية إلى السريانية: التحوّل الديني

في العصور اللاحقة، دخلت الآرامية مرحلة جديدة مع المسيحية، حيث تبلورت السريانية كلغة طقسية ولاهوتية. هذا التحوّل الديني سيؤدّي لاحقًا إلى إعادة تعريف اللغة بوصفها هوية، وهي مسألة ستُناقَش تفصيليًا في الفصل التالي.

خلاصة الفصل السادس

يُظهر هذا الفصل أن الآراميين لم يكونوا قومية إثنية متجانسة، بل تحالفات بدوية تحوّلت لغتهم، لا جماعتهم، إلى عنصر كوني. إن فهم هذا المسار من التحالف إلى اللغة هو مفتاح قراءة الدور الآرامي في تاريخ الشرق الأدنى دون إسقاطات قومية لاحقة.

6.1 الظهور التاريخي: الاسم قبل الكيان

يظهر اسم «الآراميين» في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، في سياق الانهيارات السياسية التي أعقبت سقوط أنظمة العصر البرونزي المتأخر. لا يَرِد الاسم بوصفه دولة مركزية أو شعبًا متجانسًا، بل كتسمية تُطلق على **جماعات بدوية–رعوية** نشطت في البادية السورية–الفراتية ومناطق التماس مع المدن. هذا الظهور المبكر للاسم **يسبق** تشكّل أي كيان سياسي آرامي واضح، ما يدل على أن التسمية كانت توصيفًا اجتماعيًا–سياسيًا لحالة حركية، لا تعريفًا إثنيًا صارمًا.

6.2 البنية التحالفية: القبيلة بوصفها إطارًا مرنًا

لم تتشكّل الجماعات الآرامية على أساس نسب واحد أو أصل بيولوجي صافي، بل عبر **تحالفات مرنة** ضمّت عشائر ومجموعات مختلفة. كانت الرعوية والتنقّل عنصرين مركزيين في هذه البنية، وهو ما أتاح قدرة عالية على الانتشار والاندماج. لذلك، لا يصحّ النظر إلى «الآراميين» كأمة إثنية متجانسة، بل كإطار اجتماعي مفتوح **يتّسع ويضيق** بحسب الظروف السياسية والاقتصادية.

6.3 من البادية إلى المدينة: ملء الفراغ السياسي

مع تراجع القوى المركزية القديمة (الحثية والميتانية وغيرها)، دخلت الجماعات الآرامية المدن واستقرّت فيها تدريجيًا. لم يكن هذا الدخول تدميريًا في جوهره، بل **اندماجيًا**؛ إذ ورث الآراميون أطرًا مدينية قائمة، واستفادوا من شبكات التجارة والإدارة المحلية. في هذه

المرحلة، بدأ التحوّل الحاسم: **من جماعات محكية متنقلة إلى فاعلين مدينيين**، وهو ما مهّد لتحوّل الآرامية من لهجة محكية إلى لغة إدارة محلية.

6.4 اللغة قبل الهوية: لماذا نجحت الآرامية؟

لم تنتشر الآرامية لأنها لغة «شعب مهيمن» عسكريًا، بل لأنها لغة **وظيفية**: بسيطة نسبيًا، مرنة، وقابلة للتعلّم السريع. ومع تعقّد شؤون الإمبراطوريات اللاحقة، ولا سيما الآشورية ثم الفارسية، جرى اعتماد الآرامية لغةَ تواصل وإدارة عابرة للأقاليم. هذا التبنّي الإمبراطوري كان العامل الحاسم في تحوّل الآرامية إلى **لغة كونية**، تتجاوز حدود الجماعات الآرامية نفسها.

6.5 الآراميون ≠ الآرامية: الفصل الضروري

يُعدّ الفصل بين الجماعة واللغة مفتاحًا لفهم الظاهرة الآرامية. فانتشار الآرامية الواسع لا يعني انتشار «الآراميين» كقوم. لقد استخدمت الآرامية شعوب ومدن لا تُعرّف نفسها بوصفها آرامية، ما يؤكد أن اللغة هنا **وظيفة تاريخية** لا علامة انتماء قومي. هذا الخلط بين اللغة والهوية هو ما ولّد لاحقًا أوهام الاستمرارية الإثنية.

6.6 من الآرامية إلى السريانية: التحوّل الديني

في القرون الميلادية الأولى، دخلت الآرامية مرحلة جديدة مع انتشار المسيحية، حيث تبلورت **السريانية** كلغة طقسية ولاهوتية وأدبية. منح هذا التحوّل اللغة مكانة رمزية وثقافية عالية، لكنه لم يُنتج قومية آرامية أو سريانية؛ بل **هوية لغوية–كنسية** عابرة للأصول الاجتماعية. سيُناقَش هذا التحوّل وتداعياته الهويّاتية بتفصيل في الفصل التالي.

6.7 خلاصة الفصل

يبيّن هذا الفصل أن الآراميين لم يكونوا قومية إثنية متجانسة، بل **تحالفات بدوية–مدينية** تحوّلت لغتهم، لا جماعتهم، إلى عنصر كوني. إن صعود الآرامية كلغة إدارة وتواصل كان نتيجة نجاحها الوظيفي وتبنّيها الإمبراطوري، لا نتيجة هيمنة إثنية. وبذلك، فإن قراءة الآراميين بوصفهم «أمة لغوية» تُعدّ إسقاطًا حديثًا يتجاهل الفاصل بين **اللغة** و**الهوية** في تاريخ الشرق الأدنى.

الفصل السابع

السريان: من لغة مسيحية إلى هوية متنازع عليها

7.1 السريانية: تعريف لغوي لا قومي

تُعدّ السريانية في أصلها تسمية لغوية–ثقافية تشير إلى إحدى تطوّرات الآرامية في شمال بلاد الشام وبلاد الرافدين. لم تظهر السريانية بوصفها هوية إثنية أو قومية، بل كلغة أدبية وطقسية استُخدمت في سياق مسيحي ناشئ. وعليه، فإن مصطلح «سرياني» في المصادر المبكرة يدل على الانتماء اللغوي–الكنسي لا على أصل عِرقي.

7.2 من الآرامية إلى السريانية: التحوّل المسيحي

مع انتشار المسيحية في القرون الميلادية الأولى، أصبحت الآرامية المحكية لغة لاهوت وتعليم ديني. وقد أسهمت المراكز المسيحية في الرها ونصيبين وغيرها في تقنين هذه اللغة أدبيًا، لتتشكّل السريانية بوصفها لغة نصية معيارية للطقس والتعليم.

هذا التحوّل منح اللغة مكانة رمزية جديدة، لكنه لم يُنتج قومية سريانية.

7.3 الكنيسة بدل الأمة

في غياب الدولة القومية، شكّلت الكنيسة الإطار الأساسي للانتماء السرياني. فالهوية كانت كنسية–طقسية، يُعرّف فيها الفرد من خلال انتمائه الكنسي وممارسته الدينية، لا من خلال نسب إثني أو وعي قومي.

هذا النمط من الهوية استمرّ قرونًا، دون أي تعبير عن «شعب سرياني» بالمعنى القومي.

7.4 السرياني في المصادر: اسم للغة والطقس

تُظهر النصوص السريانية المبكرة أن مصطلح «سرياني» استُخدم بوصفه وصفًا للغة والطقس، لا بوصفه تسمية لشعب. ولم يَرِد في هذه المصادر تعريف ذاتي جماعي يقول «نحن السريان» بوصفنا قومية مستقلة.

هذا الغياب مهم لفهم طبيعة الهوية السريانية التاريخية.

7.5 متى بدأت قومنة السريانية؟

بدأت عملية تحويل السريانية من هوية لغوية–كنسية إلى هوية قومية في سياقات حديثة، ولا سيما في القرنين التاسع عشر والعشرين. ارتبط هذا التحوّل بعوامل متعددة، منها:

- الاستشراق الأوروبي
- الإرساليات التبشيرية
- التحوّلات السياسية في الشرق الأوسط
- البحث عن تمثيل جماعي في الدول الحديثة

في هذا السياق، أُعيد تأويل الماضي السرياني ضمن سردية قومية لم تكن موجودة تاريخيًا.

7.6 تعدّد التسميات والصراع الهويّاتي

أدّى التحوّل الحديث إلى ظهور تسميات متعدّدة (سرياني، آشوري، كلداني) تُستخدم اليوم بوصفها هويات قومية متنافسة، رغم أنها تشترك في اللغة والتراث الكنسي بدرجات مختلفة.

هذا التعدّد يعكس صراعًا معاصرًا على الهوية، لا تعدّدًا إثنيًا قديمًا.

خلاصة الفصل السابع

يبيّن هذا الفصل أن السريانية كانت تاريخيًا لغةً وثقافةً كنسية، لا قومية إثنية. إن تحويلها إلى هوية قومية متنازع عليها هو نتاج سياقات حديثة أعادت قراءة الماضي عبر أدوات الدولة–الأمة، متجاهلة طبيعة الانتماء الديني–اللغوي الذي ميّز السريان عبر قرون طويلة.

7.1 السريانية: تسمية لغوية–كنسية لا قومية

لم تظهر «السريانية» في تاريخ الشرق الأدنى بوصفها اسم شعب أو قومية، بل بوصفها **صيغة لغوية–ثقافية** من الآرامية ارتبطت بالبيئة المسيحية في شمال بلاد الرافدين وبلاد الشام. إن أقدم استعمالات مصطلح «السرياني» تدل على **اللغة** و**الطقس** و**الأدب الكنسي**، لا على انتماء إثني أو قومي. وعليه، فإن السريانية تمثّل مرحلة ثقافية–دينية من تاريخ الآرامية، لا هوية شعب مستقل.

7.2 من الآرامية إلى السريانية: تحوّل الوظيفة لا الأصل

كان تحوّل الآرامية إلى السريانية نتيجة مباشرة لانتشار المسيحية، التي احتاجت إلى لغة قادرة على نقل النصوص اللاهوتية والتعليم الديني. جرى تطوير السريانية كلغة أدب

وطقس، مع تقعيدها وتوسيع معجمها، دون أن يعني ذلك نشوء «شعب سرياني» جديد. فالتحوّل هنا **وظيفي–ثقافي**، لا إثني–بيولوجي.

7.3 السريان في النصوص المبكرة: هوية دينية

في المصادر المسيحية الشرقية المبكرة، يُستخدم مصطلح «سرياني» للإشارة إلى:

- لغة الكنيسة
- جماعة المؤمنين الناطقين بها
- تقليد لاهوتي وأدبي محدّد

ولا نجد في هذه النصوص أي ادّعاء بأن «السريان» يمثّلون قومية قديمة متصلة بشعب تاريخي مستقل. الهوية السريانية كانت **هوية إيمانية–لغوية** داخل فضاء مسيحي متعدّد الأعراق.

7.4 السريان بين الإمبراطوريات

عاش السريان ضمن أطر سياسية متعاقبة: رومانية، بيزنطية، فارسية، ثم إسلامية. في جميع هذه السياقات، لم يظهر السريان ككيان قومي سياسي، بل كجماعات دينية–لغوية تكيّفت مع أنظمة الحكم المختلفة. استمرّت السريانية كلغة ثقافة وطقس، بينما ظلّ الانتماء السياسي منفصلًا عنها.

7.5 من الهوية الكنسية إلى القومية الحديثة

لم يبدأ تحويل السريانية إلى هوية قومية إلا في العصر الحديث، وتحديدًا في القرنين التاسع عشر والعشرين، تحت تأثير:

- الاستشراق الأوروبي
- الإرساليات التبشيرية
- صعود نموذج الدولة–الأمة
- التنافس على التمثيل السياسي

في هذا السياق، جرى **قَومنة الهوية الكنسية**، وتحويل اللغة والطقس إلى أساس لانتماء قومي حديث، وهو تحوّل لا جذور له في العصور القديمة أو الوسيطة.

7.6 إشكالية التسميات: سرياني، آشوري، كلداني

أنتج العصر الحديث تعدّدًا في التسميات داخل الإطار المسيحي المشرقي (سرياني، آشوري، كلداني)، وكلّها تشترك في أصل لغوي–كنسي واحد، لكنها تختلف في **السرديات الحديثة** التي أُسقطت عليها. لا تعبّر هذه التسميات عن شعوب قديمة متمايزة بقدر ما تعبّر عن **هويات معاصرة متنافسة** نشأت في ظروف سياسية حديثة.

7.7 السريانية بين الذاكرة والتاريخ

تُعدّ الذاكرة الجماعية السريانية جزءًا مشروعًا من التجربة التاريخية للمسيحيين المشرقيين، غير أن تحويل هذه الذاكرة إلى سردية إثنية قديمة متصلة يُعدّ خلطًا بين **التاريخ الأكاديمي** و**الهوية المعاشة**. إن التفريق بين الذاكرة والتاريخ شرط أساسي لفهم السريانية في سياقها الحقيقي.

7.8 خلاصة الفصل

يخلص هذا الفصل إلى أن السريانية ليست قومية قديمة، بل **لغة وثقافة كنسية** نشأت من الآرامية في سياق مسيحي. إن تحويلها إلى هوية قومية هو نتاج حديث أعاد تفسير الماضي وفق منطق الدولة–الأمة، متجاهلًا الطبيعة الدينية–اللغوية التي ميّزت السريان عبر قرون طويلة.

الفصل الثامن

السكان يستمرّون... والأسماء تتبدّل

8.1 الاستمرارية السكانية مقابل الانقطاع الهويّاتي

تُعدّ التفرقة بين الاستمرارية السكانية والانقطاع الهويّاتي حجر الزاوية في فهم تاريخ الشرق الأدنى. فالتغيّرات السياسية واللغوية لا تعني بالضرورة تبدّلًا جذريًا في البنية السكانية. على العكس، تُظهر الأدلة الأثرية أن المجتمعات المحلية استمرّت في المكان نفسه، بينما تبدّلت الأطر التي تُعرّفها وتسمّيها.

8.2 المدينة والريف: حاملان للاستمرارية

شكّلت المدن والريف المحيط بها وحدات ديموغرافية طويلة الأمد. ورغم تعاقب الدول والإمبراطوريات، ظلّ السكان يمارسون أنماط حياة متشابهة، مع تكيّف تدريجي مع لغات الإدارة والطقوس السائدة.

هذا الاستقرار النسبي يفسّر لماذا تتغيّر الأسماء دون أن تختفي الجماعات البشرية.

8.3 اللغة بوصفها وظيفة تاريخية

اللغة في الشرق الأدنى القديم كانت أداة وظيفية قبل أن تكون علامة هوية. فانتقال الناس من الأكدية إلى الآرامية، أو من الآرامية إلى العربية، لا يدل على تبدّل إثني شامل، بل على تكيّف مع لغة السلطة أو الدين أو الاقتصاد.

8.4 وهم الإبادة ووهم الاستمرارية المطلقة

تقع السرديات القومية الحديثة بين وهمين متناقضين: وهم الإبادة الكاملة، ووهم الاستمرارية المطلقة. كلاهما يُغفل الواقع المركّب الذي يجمع بين استمرار السكان وتحوّل الهويات.

إن التاريخ لا يعرف القطيعة المطلقة، ولا يعرف الاستمرارية الصافية.

8.5 أمثلة تطبيقية من الشام وبلاد الرافدين

تُظهر دراسة التحوّلات في الشام وبلاد الرافدين كيف استمرّت المجتمعات المحلية رغم تغيّر أسماء المناطق واللغات الرسمية. فالسكان الذين عاشوا تحت حكم آشوري أو بابلي أو فارسي أو روماني لم يختفوا، بل أعادوا تعريف أنفسهم ضمن أطر جديدة.

8.6 من الاسم إلى الهوية: متى يحدث التحوّل؟

لا يتحوّل الاسم إلى هوية إلا حين تتوافر شروط سياسية وثقافية محدّدة، مثل:

- وجود دولة حديثة
- تعليم موحّد
- خطاب تاريخي قومي
- صراع سياسي على التمثيل

في غياب هذه الشروط، يبقى الاسم توصيفًا وظيفيًا لا هوية قومية.

خلاصة الفصل الثامن

يؤكّد هذا الفصل أن فهم تاريخ الشرق الأدنى يتطلّب تجاوز القراءة التي تربط الاسم مباشرة بالشعب. فالسكان يستمرّون عبر العصور، بينما تتبدّل الأسماء والهويات تبعًا لتحوّلات السلطة واللغة والدين. إن إدراك هذه المعادلة هو الأساس لتفكيك السرديات القومية المصطنعة دون إنكار الواقع البشري المستمر.

8.1 إشكالية الانقطاع والاستمرارية

من أكثر الإشكالات شيوعًا في كتابة تاريخ الشرق الأدنى الخلطُ بين **سقوط الكيانات السياسية** و**اختفاء السكان**. فالسرديات القومية الحديثة تميل إلى افتراض أن انهيار دولة أو تغيّر اسم إقليم يعني بالضرورة انقطاعًا سكانيًا أو إحلال شعب مكان آخر. غير أن المعطيات الأثرية والديموغرافية تشير إلى عكس ذلك: **السلطات تتبدّل، بينما السكان في معظم الحالات يستمرّون** مع تحوّلات ثقافية ولغوية ودينية.

8.2 المدينة والريف: بنية الاستمرار الطويل

شكّلت المدن والريف المحيط بها وحدات استيطان طويلة الأمد في الشام وبلاد الرافدين. وعلى الرغم من تغيّر الحكّام والإدارات، ظلّت أنماط السكن والزراعة والاقتصاد المحلي مستقرّة نسبيًا. هذا الاستمرار البنيوي يفسّر لماذا لا يمكن قراءة التاريخ بوصفه سلسلة من الإبادات والاستبدالات السكانية، بل بوصفه **تحوّلًا في الأطر السياسية فوق مجتمعٍ مستقرّ نسبيًا**.

8.3 الدولة تسقط... المجتمع لا يختفي

إن سقوط الإمبراطوريات (الآشورية، البابلية، الفارسية، الرومانية) لم يؤدِّ إلى تفريغ المناطق من سكانها، بل إلى إعادة إدماجهم ضمن أطر حكم جديدة. كان الانتقال يتم غالبًا عبر:

- تغيير لغة الإدارة
- إعادة تنظيم الضرائب
- إدخال نخب سياسية جديدة

أما القاعدة السكانية، فكانت تواصل حياتها مع تكيّف تدريجي مع الواقع الجديد.

8.4 تغيّر اللغة: تحوّل وظيفي لا إثني

يمثّل تغيّر اللغة أحد أكثر المؤشرات التي أُسيء تفسيرها تاريخيًا. فالانتقال من الأكدية إلى الآرامية، ثم من الآرامية إلى العربية، لا يدل على تغيّر إثني شامل، بل على **تحوّل وظيفي في لغة التواصل والإدارة والدين**. إن اللغة في الشرق الأدنى كانت أداة عملية، لا علامة هوية قومية ثابتة.

8.5 الأسماء الجغرافية والهوية المتحوّلة

تغيّرت أسماء الأقاليم والمدن مرارًا عبر العصور، وغالبًا ما فُرضت من قِبل سلطات خارجية. إن اعتماد الاسم بوصفه دليلًا على هوية الشعب يُعدّ خطأً منهجيًا؛ فالأسماء تتبدّل، بينما يبقى السكان في المكان نفسه، يعيدون تعريف أنفسهم ضمن أطر لغوية أو دينية جديدة.

8.6 وهم الإبادة الشاملة ووهم الاستمرارية المطلقة

تقع السرديات القومية الحديثة بين وهمين متناقضين:

- **وهم الإبادة الشاملة**: الذي يفترض اختفاء الشعوب القديمة كليًا
- **وهم الاستمرارية المطلقة**: الذي يفترض بقاء هوية قومية واحدة دون انقطاع

كلا الوهمين يتجاهل الواقع المركّب الذي يجمع بين **استمرار السكان** و**تحوّل الهويات** عبر الزمن.

8.7 من السكان إلى الهوية: متى يحدث التحوّل؟

لا تتحوّل الجماعة السكانية إلى «هوية قومية» إلا في ظروف تاريخية محدّدة، أبرزها:

- وجود دولة مركزية حديثة
- نظام تعليمي موحّد
- خطاب تاريخي قومي
- حاجة سياسية إلى التعبئة والتمثيل

في غياب هذه الشروط، تبقى الهوية **محلّية أو دينية أو لغوية**، لا قومية.

8.8 خلاصة الفصل

يؤكّد هذا الفصل أن تاريخ الشرق الأدنى لا يُقرأ من خلال تبدّل الأسماء والدول، بل من خلال فهم العلاقة المعقّدة بين **استمرارية السكان** و**تحوّل الأطر السياسية واللغوية**. إن

إدراك هذه المعادلة هو المفتاح لفهم الهويات القديمة دون إسقاط مفاهيم حديثة عليها، وهو ما يمهّد للانتقال إلى تحليل إعادة تصنيع الهوية في العصر الحديث.

الفصل التاسع (الأخير)

إعادة تصنيع الهوية في العصر الحديث

9.1 القطيعة الحديثة: من الإمبراطورية إلى الدولة–الأمة

شهد القرنان التاسع عشر والعشرون تحوّلًا جذريًا في بنية الهوية في الشرق الأوسط مع انهيار الإمبراطوريات التقليدية وصعود نموذج الدولة–الأمة. هذا التحوّل لم يكن امتدادًا طبيعيًا للماضي، بل قطيعة بنيوية فرضت مفاهيم جديدة للانتماء، أبرزها القومية، والحدود، واللغة المعيارية.

9.2 الاستشراق وصناعة الماضي

لعب الاستشراق الأوروبي دورًا محوريًا في إعادة قراءة تاريخ الشرق الأدنى عبر عدسة توراتية–كلاسيكية، سعت إلى العثور على «شعوب قديمة» ثابتة. وقد أدّى ذلك إلى:

- تثبيت أسماء قديمة كقوميات
- ربط اللغة بالعرق
- تحويل الكيانات السياسية إلى شعوب إثنية

هذه القراءة انتقلت لاحقًا إلى النخب المحلية.

9.3 الإرساليات والهوية الدينية المُقَوْمَنة

أسهمت الإرساليات التبشيرية في تحويل الهويات الدينية–الكنسية إلى هويات قومية ناشئة، عبر التعليم، والطباعة، وإعادة تأويل التراث اللغوي. جرى في هذا السياق تقديم اللغة الطقسية بوصفها لغة قومية، والكنيسة بوصفها إطار أمة.

9.4 التعليم، الطباعة، وتوحيد السردية

مع انتشار التعليم الحديث والطباعة، أُعيد إنتاج التاريخ ضمن سرديات مبسّطة تخدم بناء الهوية القومية. جرى اختيار مقاطع من الماضي، وإهمال أخرى، لتشكيل ذاكرة جمعية جديدة تتناسب مع متطلبات الدولة الحديثة.

9.5 الهوية بوصفها أداة سياسية

تحوّلت الهوية في العصر الحديث إلى أداة سياسية تُستخدم للمطالبة بالتمثيل والحقوق، أو للحشد في سياق الصراع. في هذا الإطار، لم تعد الهوية توصيفًا تاريخيًا، بل مشروعًا سياسيًا حاضرًا.

9.6 من الذاكرة إلى التاريخ: ضرورة الفصل

يختم هذا الفصل بالتأكيد على ضرورة الفصل بين الذاكرة الجماعية والتاريخ الأكاديمي. فالذاكرة مشروعة بوصفها تجربة معيشة، لكن تحويلها إلى حقيقة تاريخية دون نقد يُنتج سرديات مغلقة.

الخاتمة الكبرى

يخلص هذا الكتاب إلى أن كثيرًا من الهويات المتداولة اليوم في الشرق الأدنى ليست امتدادًا مباشرًا لكيانات قديمة، بل إعادة تصنيع حديثة لأسماء، ولغات، وذاكرات أقدم. إن تفكيك هذه الهويات لا يعني إنكار التاريخ أو نفي الوجود، بل تحرير الماضي من إسقاطات الحاضر.

يقترح هذا العمل انتقالًا منهجيًا من سؤال «من نحن؟» إلى سؤال «كيف تشكّلت ما نسمّيه نحن؟»، بوصفه السبيل الأجدى لفهم تاريخ الشرق الأدنى بوصفه تاريخ تحوّلات، لا تاريخ أمم ثابتة.

9.1 القطيعة الحديثة: من الإمبراطوريات إلى الدولة–الأمة

يمثّل العصر الحديث قطيعة بنيوية في تاريخ الهويات في الشرق الأدنى. فبانهيار الإمبراطوريات التقليدية وصعود نموذج **الدولة–الأمة**، تغيّرت طبيعة الانتماء جذريًا. لم يعد الانتماء يُعرَّف بالمدينة أو الطائفة أو اللغة الوظيفية، بل بالحدود، والتعليم الموحّد، والسردية القومية. هذه القطيعة لم تكن امتدادًا طبيعيًا للماضي، بل **إعادة تشكيل شاملة لمعنى الهوية**.

9.2 الاستشراق وإعادة قراءة الماضي

أسهم الاستشراق الأوروبي في القرن التاسع عشر في إعادة قراءة تاريخ الشرق الأدنى عبر عدسة توراتية–كلاسيكية، سعت إلى تثبيت «شعوب قديمة» متصلة عبر الزمن. جرى:

- تحويل أسماء دول قديمة إلى قوميات
- ربط اللغة بالعرق
- قراءة النصوص الدينية بوصفها سجلات تاريخية إثنية

وقد انتقلت هذه القراءة لاحقًا إلى نخب محلية، فتمّ **استبطان السردية الاستشراقية** وإعادة إنتاجها من الداخل.

9.3 الإرساليات والكنيسة والتعليم

لعبت الإرساليات التبشيرية دورًا مهمًا في قَومنة الهويات الدينية، من خلال:

- التعليم الحديث
- الطباعة
- إعادة تقعيد اللغات الطقسية
- تقديم الكنيسة بوصفها إطار «أمة»

لم يكن هذا التحوّل نابعًا من الماضي القديم، بل من حاجات العصر الحديث إلى هوية جامعة قابلة للتمثيل السياسي.

9.4 الطباعة، المدرسة، والسردية الموحدة

أدّى انتشار الطباعة والتعليم النظامي إلى إنتاج **ذاكرة جمعية جديدة**، تقوم على:

- تاريخ مُبسّط
- اختيار انتقائي للماضي
- إسقاط الحاضر على الأزمنة القديمة

بهذا المعنى، لم تعد الهوية وصفًا، بل **مشروعًا سياسيًا–ثقافيًا**.

9.5 الهوية بوصفها أداة سياسية

في العصر الحديث، تحوّلت الهوية إلى أداة للمطالبة بالحقوق، أو للتعبئة، أو للصراع. لم يعد السؤال «من نحن تاريخيًا؟» بل «كيف نستخدم التاريخ؟». هذا التحوّل يفسّر حدّة النزاعات الهويّاتية المعاصرة، التي غالبًا ما تستند إلى قراءات غير نقدية للماضي.

9.6 الذاكرة مقابل التاريخ

يمثّل الخلط بين الذاكرة الجماعية والتاريخ الأكاديمي إحدى أخطر إشكالات كتابة التاريخ الحديث. فالذاكرة مشروعة بوصفها تجربة معيشة، لكنها ليست دليلًا تاريخيًا بحدّ ذاتها. أمّا التاريخ، فيتطلّب:

- نقد المصادر
- مقارنة الروايات
- الفصل بين الرمز والواقع

إن تحرير التاريخ من ضغط الذاكرة شرط لفهم الماضي دون تحويله إلى سلاح.

9.7 نحو قراءة نقدية للهويات

يدعو هذا الفصل إلى الانتقال من سؤال «من نحن؟» إلى سؤال «كيف ولماذا تشكّلت هذه الهوية؟». هذا التحوّل لا ينفي الانتماءات المعاصرة، بل يضعها في سياقها التاريخي الحقيقي، ويفتح الباب أمام قراءة أكثر هدوءًا وتعدّدية للماضي.

الخاتمة الكبرى

تفكيك الهويات دون إنكار التاريخ

يخلص هذا الكتاب إلى أن كثيرًا من الهويات المتداولة اليوم في الشرق الأدنى ليست امتدادًا مباشرًا لكيانات قديمة، بل **إعادة تصنيع حديثة** لأسماء، ولغات، وذاكرات أقدم. لم تختفِ المجتمعات مع سقوط الدول، ولم تستمرّ الهويات القومية عبر آلاف السنين كما تُصوَّر في السرديات المعاصرة.

إن تفكيك الهويات المصطنعة لا يعني إنكار التاريخ ولا نفي الوجود، بل **تحرير الماضي من إسقاطات الحاضر**. فالسكان يستمرّون، والأسماء تتبدّل، والهوية تبقى نتاجًا تاريخيًا متحوّلًا، لا جوهرًا ثابتًا.

بهذا المنهج، يُعاد فهم تاريخ الشرق الأدنى بوصفه تاريخ **تحوّلات وبُنى**، لا تاريخ أمم خالدة. وهو فهم يفتح أفقًا علميًا وأخلاقيًا لتجاوز الصراعات الهويّاتية، وبناء قراءة نقدية أكثر إنصافًا للماضي والإنسان.

المراجع الغربية الأساسية (مرتبة حسب الفصول)

الفصل الأول – إشكالية الهوية والمنهج

- Benedict Anderson, *Imagined Communities*, Verso.
- Eric Hobsbawm & Terence Ranger (eds.), *The Invention of Tradition*, Cambridge University Press.
- Rogers Brubaker, *Ethnicity without Groups*, Harvard University Press.

الفصل الثاني – الهوية في العالم القديم

- Mario Liverani, *International Relations in the Ancient Near East*, Palgrave.
- Norman Yoffee, *Myths of the Archaic State*, Cambridge University Press.
- Glenn Schwartz, *Archaeology and the Genesis of History*, Cambridge University Press.

الفصل الثالث – آليات تصنيع الهوية

- Pierre Bourdieu, *Language and Symbolic Power*, Harvard University Press.
- Anthony D. Smith, *The Ethnic Origins of Nations*, Blackwell.
- Frederick Cooper, *Colonialism in Question*, University of California Press.

الفصل الرابع – كنعان

- Mario Liverani, *Israel's History and the History of Israel*, Equinox.

- Ann E. Killebrew, *Biblical Peoples and Ethnicity*, SBL Press.
- Mark S. Smith, *The Early History of God*, Eerdmans.

الفصل الخامس – آشور

- Simo Parpola, *Assyrian Identity in Ancient Times*, Journal of Assyrian Academic Studies.
- Karen Radner, *Ancient Assyria: A Very Short Introduction*, Oxford University Press.
- Mario Liverani, *The Ancient Near East: History, Society and Economy*, Routledge.

الفصل السادس – الآراميون والآرامية

- Edward Lipiński, *The Aramaeans: Their Ancient History*, Peeters.
- Holger Gzella, *A Cultural History of Aramaic*, Brill.
- John Huehnergard, *An Introduction to Semitic Languages*, Eisenbrauns.

الفصل السابع – السريان

- Sebastian Brock, *An Introduction to Syriac Studies*, Gorgias Press.
- Lucas Van Rompay, *Syriac Christianity*, Oxford University Press.
- Glen Bowersock, *Late Antiquity*, Harvard University Press.

الفصل الثامن – الاستمرارية السكانية

- Chris Wickham, *Framing the Early Middle Ages*, Oxford University Press.
- Peter Brown, *The World of Late Antiquity*, Thames & Hudson.
- Walter Scheidel et al. (eds.), *The Cambridge Economic History of the Greco-Roman World*, Cambridge University Press.

الفصل التاسع – إعادة تصنيع الهوية الحديثة

- Ernest Gellner, *Nations and Nationalism*, Blackwell.

- Partha Chatterjee, *The Nation and Its Fragments*, Princeton University Press.
- Ussama Makdisi, *Artillery of Heaven*, Cornell University Press.

الحوريون: أصحاب الأرض قبل الأسماء

---

1. الحوريون: شعب الجغرافيا لا الدولة

لا يمكن فهم تاريخ شمال بلاد الرافدين وسوريا والأناضول الجنوبي من دون وضع **الشعب الحوري** في مركز التحليل. فالحوريون لا يظهرون بوصفهم «دولة قومية» قصيرة العمر، بل بوصفهم **سكانًا أصليين** ارتبط وجودهم بجغرافيا محددة: الجبال، الأودية، الهضاب، وممرات الاتصال بين السهل والجبل.

إن الحوريين هم **شعب الجغرافيا** قبل أن يكونوا شعب دولة أو اسم سياسي، ولذلك استمرّوا عبر التحوّلات دون أن يختفوا، لأنهم لم يرتبطوا بزوال سلطة مركزية واحدة.

---

2. الجغرافيا الحورية: من زاغروس إلى طوروس

تشير المعطيات الأثرية واللغوية إلى أن الفضاء الحوري شمل:

- شمال وشرق بلاد الرافدين
- الجزيرة الفراتية
- شمال سوريا الداخلية
- جنوب شرق الأناضول
- السفوح الغربية لجبال زاغروس
- نطاق جبال طوروس وأمانوس

هذه الجغرافيا ليست عرضية، بل تمثّل **نطاق استيطان جبلي–مديني متصل**، يختلف بنيويًا عن مجتمعات السهل الزراعي الخالص أو البادية الرعوية الصرفة.

---

3. الحوريون قبل ميتاني: الاستمرارية قبل الدولة

غالبًا ما يُختزل الحوريون في مملكة **ميتاني**، غير أن هذا الاختزال يُضلّل فهم الظاهرة الحورية. فالحوريون:

- وُجدوا **قبل** ميتاني بقرون
- واستمرّوا **بعد** سقوطها
- وظهروا في نصوص سومرية وأكادية وآشورية بأسماء متعددة

إن ميتاني ليست «بداية الحوريين»، بل **مرحلة سياسية** ضمن تاريخ سكاني أقدم وأوسع.

---

4. اللغة الحورية: دليل الأصالة لا العزلة

تمثّل اللغة الحورية عنصرًا حاسمًا في إثبات الأصالة السكانية؛ فهي:

- لغة **غير سامية**
- وغير هندوأوروبية
- ومتجذّرة في بيئة شمالية–جبلية

هذا الانفصال اللغوي لا يعني عزلة، بل يدل على **جذور محلية قديمة** سبقت موجات اللغات السامية اللاحقة، التي انتشرت كلغات إدارة وتواصل، لا كدليل على استبدال سكاني.

---

5. الحوريون وآشور: الدولة فوق السكان

حين نشأت الدولة الآشورية، نشأت فوق **أرض مأهولة حوريًا–سوبارتيًا**.
لم تكن آشور استيطانًا جديدًا، بل:

- سلطة سياسية فوق مجتمع قائم
- تبنّت لغة الدولة (الأكدية)
- دون أن تُنتج قطيعة سكانية

إن قراءة آشور كدولة حاكمة لا كشعب إثني تُعيد الاعتبار للحوريين بوصفهم **القاعدة السكانية** التي استمرّت بعد سقوط آشور.

---

6. الحوريون والآراميون: الداخل لا الغزو

عندما ظهرت الجماعات الآرامية، لم تدخل فراغًا ديموغرافيًا، بل فضاءً مأهولًا.
دخل الآراميون:

- من البادية إلى المدن
- وتفاعلوا مع مجتمعات جبلية–مدينية قائمة

بهذا المعنى، فإن الآرامية **غطّت لغويًا** فضاءً حوريًا قديمًا، من دون أن تُلغي سكانه.

---

7. الذوبان اللغوي لا الاختفاء السكاني

من أهم الأخطاء المنهجية:

- مساواة تغيّر اللغة بتغيّر الشعب

الحوريون:

- ذابوا لغويًا في الأكدية ثم الآرامية
- لكنهم **لم يختفوا سكانيًا**
- واستمرّوا ضمن هويات محلية ودينية لاحقة

الذوبان هنا **ثقافي–وظيفي**، لا إبادة ولا استبدال.

---

8. من الحوريين إلى السريان: مسار غير إثني

إن الانتقال من:

- حوري ← آرامي لغويًا
- آرامي ← سرياني كنسيًا

هو انتقال **وظيفي–ثقافي**، لا نسبًا إثنيًا مباشرًا.
غير أن هذا المسار لا يلغي حقيقة أن:

القاعدة السكانية في شمال الشرق الأدنى
هي امتداد لحوريين قدامى أعادوا تعريف أنفسهم عبر الزمن

---

9. الحوريون: أصحاب الأرض لا أصحاب الاسم

لم يحتفظ الحوريون باسمهم لأنهم:

- لم يؤسسوا قومية حديثة
- ولم تُكتب ذاكرتهم بلغة المنتصرين

- ولم تُقدَّس نصوصهم دينيًا

لكنهم بقوا لأنهم **أصحاب الأرض**:

- أرض الجبل
- أرض الوصل بين الشام والرافدين
- أرض الاستمرارية الصامتة

---

10. خلاصة الفصل

يؤكّد هذا الفصل أن الحوريين ليسوا شعبًا عابرًا في تاريخ الشرق الأدنى، بل **القاعدة السكانية الأصيلة** لشماله.
لقد تبدّلت الأسماء، وتغيّرت اللغات، وسقطت الدول، لكن الجغرافيا الحورية ظلّت مأهولة بأهلها، يعيدون إنتاج وجودهم داخل أطر سياسية وثقافية جديدة.

إن استعادة الحوريين إلى قلب السرد التاريخي ليست موقفًا أيديولوجيًا، بل **تصحيحٌ منهجي** لتاريخ كُتب طويلًا من زاوية الدولة لا السكان.

1. الحوريون: شعب الجغرافيا لا الدولة

لا يمكن فهم تاريخ شمال بلاد الرافدين وسوريا والأناضول الجنوبي من دون وضع **الشعب الحوري** في مركز التحليل. فالحوريون لا يظهرون بوصفهم دولة قومية، بل بوصفهم **سكانًا أصليين** ارتبط وجودهم بجغرافيا محددة: الجبال، الأودية، الهضاب، وممرات الاتصال بين السهل والجبل. إنهم شعب تشكّل **داخل الجغرافيا** لا فوقها، ولذلك استمرّوا عبر التحوّلات السياسية دون أن يختفوا.[1]

---

2. الجغرافيا الحورية: من زاغروس إلى طوروس

تُظهر النصوص المسمارية والدراسات الأثرية أن الفضاء الحوري شمل:

- شمال وشرق بلاد الرافدين
- الجزيرة الفراتية
- شمال سوريا الداخلية
- جنوب شرق الأناضول
- السفوح الغربية لجبال زاغروس

- نطاق جبال طوروس وأمانوس

ويمثّل هذا الامتداد **نطاقًا جبليًا–مدينيًا متصلًا**، لا مجال نفوذ سياسيًا عابرًا، ما يدل على استيطان طويل الأمد.[2]

---

3. الحوريون قبل ميتاني: الاستمرارية قبل الدولة

غالبًا ما يُختزل الحوريون في مملكة ميتاني، غير أن هذا الاختزال يُغفل حقيقة أن الحوريين ذُكروا في النصوص السومرية والأكادية قبل قيام ميتاني بقرون. فميتاني ليست أصل الحوريين، بل **مرحلة سياسية عابرة** ضمن تاريخ سكاني أقدم وأوسع.[3]

---

4. اللغة الحورية: دليل الأصالة السكانية

تُعدّ اللغة الحورية عنصرًا حاسمًا في إثبات الجذور المحلية للحوريين؛ فهي لغة **غير سامية** و**غير هندوأوروبية**، ما يشير إلى طبقة سكانية قديمة سبقت موجات الانتشار اللغوي السامي اللاحقة. إن اختفاء اللغة لا يعني اختفاء المتكلمين بها، بل ذوبانهم في لغات الإدارة والتواصل.[4]

---

5. الحوريون وآشور: الدولة فوق السكان

نشأت الدولة الآشورية فوق فضاء مأهول حوريًا–سوبارتيًا. وقد ميّزت الدراسات الحديثة بين **الكيان السياسي الآشوري** وبين **القاعدة السكانية السابقة له**. فآشور كانت دولة حاكمة، لا شعبًا إثنيًا جديدًا حلّ محل سكان سابقين.[5]

---

6. الحوريون والآراميون: تفاعل لا استبدال

عندما ظهرت الجماعات الآرامية في الألف الأول قبل الميلاد، لم تدخل أرضًا فارغة، بل فضاءً مأهولًا. وتشير الأبحاث إلى أن الآراميين اندمجوا في مجتمعات قائمة، وأن انتشار لغتهم كان **وظيفيًا** لا نتيجة إحلال سكاني.[6]

---

7. الذوبان اللغوي مقابل الاستمرار السكاني

يؤكّد علم الآثار التاريخي أن تغيّر اللغة لا يساوي تغيّر الشعب. فالحوريون ذابوا لغويًا في الأكدية ثم الآرامية، لكنهم استمرّوا ديموغرافيًا ضمن القرى والمدن نفسها. هذا النمط من الاستمرارية معروف في تاريخ الشرق الأدنى.[7]

8. من الحوريين إلى السريان: مسار غير إثني

إن الانتقال من الحورية إلى الآرامية ثم السريانية هو انتقال **لغوي–ديني**، لا سلسلة نسب إثني. فالسريانية لغة كنسية نشأت في فضاء سكاني أقدم، لا هوية شعب جديد.[8]

9. الحوريون: أصحاب الأرض لا أصحاب الاسم

لم يحتفظ الحوريون باسمهم لأنهم لم يؤسّسوا دولة قومية، ولم تُقدَّس نصوصهم دينيًا، ولم تُكتب ذاكرتهم بلغة المنتصرين. لكنهم بقوا لأنهم **أصحاب الأرض**، واستمرّوا داخلها بأسماء جديدة.[9]

10. خلاصة الفصل

يؤكّد هذا الفصل أن الحوريين يمثّلون **القاعدة السكانية الأصيلة** لشمال الشرق الأدنى. تبدّلت الأسماء، وتغيّرت اللغات، وسقطت الدول، لكن الجغرافيا الحورية ظلّت مأهولة بسكانها، يعيدون إنتاج وجودهم عبر أطر سياسية وثقافية جديدة. إن إعادة الحوريين إلى قلب السرد التاريخي تمثّل **تصحيحًا منهجيًا** لا موقفًا أيديولوجيًا.

هوامش الفصل الحوري

1. Mario Liverani, *The Ancient Near East: History, Society and Economy* (London: Routledge, 2014), 81–95.
2. Trevor Bryce, *The Routledge Handbook of the Peoples and Places of Ancient Western Asia* (London: Routledge, 2009), 330–336.
3. Gernot Wilhelm, “Hurrians,” in *The Oxford Encyclopedia of the Ancient Near East*, ed. Eric M. Meyers (Oxford: Oxford University Press, 1997), 370–374.
4. Ilya Yakubovich, *Sociolinguistics of the Luvian Language* (Leiden: Brill, 2010), 22–27; see also Gernot Wilhelm, *Hurrian* (Warminster: Aris & Phillips, 1989), 3–6.

5. Karen Radner, *Ancient Assyria: A Very Short Introduction* (Oxford: Oxford University Press, 2015), 12–18.

6. Edward Lipiński, *The Aramaeans: Their Ancient History, Culture, Religion*. (Leuven: Peeters, 2000), 45–58.

7. Chris Wickham, *Framing the Early Middle Ages* (Oxford: Oxford University Press, 2005), 9–14.

8. Sebastian Brock, *An Introduction to Syriac Studies* (Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2006), 1–7.

9. Norman Yoffee, *Myths of the Archaic State* (Cambridge: Cambridge University Press, 2005), 52–60.